

«دون كيشوت» رواية سرقت الشهرة من صاحبها

هذه خلاصة حياتي فهل يمكنكم إدانتي عليها



«دون كيشوت وتابعه سانشو» للفنان الفرنسي دوميه

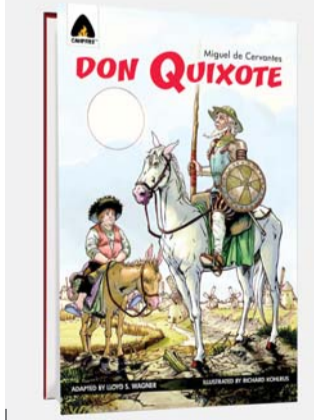
وفي كلمته أشار كمال الرياحي مدير بيت الرواية إلى أهمية اللحظة التي يتجسم فيها الحلم ويصبح واقعا عندها نتذكر كل من أمن بهذا الحلم وساعنا على تحقيقه حتى رأينا الفارس المضاد دون كيشوت الحالم يدخل المدينة ويذكرنا بأنه علينا أن نواصل أحلامنا ولا نتوقف مهما كانت الصعوبات والعراقيل.

وفي الندوة، استهل الشاعر التونسي آدم فتحي الجلسة بقصيدة «رحلة دون كيشوت الأخيرة» وهي لصديقه الشاعر السوري الراحل ممدوح عدوان الذي كان يرى أن «المنفى هو أن تعيش وسط نفايات المثل وليس أن نرحل».

الذي أدار الندوة، فأكد أن رواية «دون كيشوت» تمثل «نقطة من العصور الوسطى واخترقا للزمن وصمودا على مدى أربعة قرون محافظة على أهميتها كرواية مرجعية أثرت الروايات العالمية وأثارت الجدل وترجمت إلى كل اللغات التي ترجم لها الإنجيل».



رواية متعددة الألمان لا تزال محل اهتمامات ودراسات بعد أكثر من أربعة قرون من تأليفها



وفي الندوة التي احتفت بصاحب دون كيشوت، بعد أربعة قرون على تأليفها، بين الشاعر التونسي المنصف الوهايبى إمكانية أن تكون للنص جذور عربية وأن «دون كيشوت» ليست رواية بالمعنى الدقيق للكلمة ولكنها من الأجناس التخيلية، متابعا «أهم ما يميز الرواية الذاتية كما تفضل وليس رواية التخيل الذاتي أن الشخصية الرئيسية متطابقة في هويتها مع المؤلف، غير أن ما تعيشه في القصة من أحداث وما تتخذه من مواقف بعيدان عن سيرة المؤلف وما عاشه في الواقع المرجعي».

يكفي الإشارة إلى أن الشاعر الأرجنتيني بورخيس قد قال «كتابتان كبيرتان لا يبعثان على الملل، هما دون كيشوت والف ليلة وليلة».

سرفانتس لو شد رحاله في اتجاه العالم الجديد كما كانت الوجهة آنذاك، لحررنا من «دون كيشوت»، وأطبقت الصفحة على أختها لو استسلمنا للمزاعم والتقولات.

إرث إنساني

سرفانتس أعداء وخصوم وحساد، لكن لسدون كيشوت أحباب وعشاق ومعجبون، فلا تكاد تخلو دولة في العالم من «ناد» غير معلن لدون كيشوت، ولله الأبدى نحو المغامرة وعشق المستحيل.

خرج دون كيشوت من عباءة صانعه، واستقل عنه ضاربا عرض الحائط بالمأولين والمزايدين والمشككين، لم يغفل كتاب العالم ولم يتوانوا عن الانتماء إلى دون كيشوت، باعتباره إرثا إنسانيا، بحق للجميع أخذ نصيبه منه.

لقد كان دوستوفسكي مسكونا بشخصية دون كيشوت إلى الحد الذي كتب فيه «في العالم كله لا يوجد مؤلف أعرق وأقوى من هذا، هذه هي الكلمة الأخيرة والأسمى للفكر الإنساني، إنها

أكثر أنواع السخرية التي يمكن للإنسان التعبير عنها مرارة وإذا انتهت الحياة على الأرض، وسئل البشر هناك في مكان ما: ماذا! هل فهمت حياتكم على الأرض؟ وما الذي استخلصتموه منها؟ فيمكن للإنسان تقديم دون كيشوت في صمت: هذه هي خلاصة حياتي، فهل يمكن لكم إدانتي عليها؟».

أما الكاتب الإكوادوري خوان مونتاڤو (1832 - 1889) فيستعير شخصية دون كيشوت؛ بطل قصة الإسباني ميغيل دي سرفانتس، ليكتب رواية بعنوان «فصول من دونكيشوت نسيتها سرفانتس».

ويبرز أحد الروائيين العرب بقوله إن الاستعارة جائزة لسبب: الأول أن شخصيتها الرئيسية، دون كيشوت، وسانشو، تجاوزتا الرواية وأصبحتا إرثا إنسانيا وسينمائيا وتلفزيونيا، والثاني، هو القرابة اللغوية مع راوي العمل المخيل، الذي أطلق عليه سرفانتس اسم سيدي حامد بن الأيل، وهو اسم عربي مغاربي صريح.

«بيت الرواية» في تونس أو المنتدى الذي يديره الكاتب والروائي المتميز كمال الرياحي، احتفى مؤخرا بسرفانتس ورائعته «دون كيشوت» على اعتبارها إرثا إنسانيا يلامس منطقة الشمال الأفريقي وينهل منها، وكان ذلك في مدينة الثقافة بالعاصمة تونس، وحضور «من يهمهم الأمر» من شعراء وروائيين ومثقفين..

وأناس عاديين.. ألم يكن دون كيشوت ورفيق دربه سانشو من الناس العاديين؟ والعاديين جدا في تعلقهم بما لا يعتبر عاديا.

سرفانتس زار وتجول في سواطنا بخلق الوادي، وحارب الأتراك العثمانيين الذين مازالوا يمارسون «دونكيشوتهم» في سواحل المتوسط، وإن كان ذلك بغرسة أيديولوجية، ونزعة سياسية لم تكن توجد في رأس دون كيشوت النقي ولا في نفسية تابعه البريء سانشو.

نحن نتجاوز ونتجاوز على صفتي المتوسط، ولكن يا حبذا لو كان هذا الحوار دون رماح أو دروع أو نزعات مسبقة ومبينة.

ومن هنا أمسّت «الدونكيشوتية» مصطلحا معمما ونزعة فردانية يكتن بها كل سلوك مبني على حلم غير قابل للتحقق. وتزحزحت الوجودية عن موقعها في أكثر من سياق فأصبحت تعني جنون العظمة، والترجسية المطلقة، والتنازل على الإقذار والطبيعة، وغير ذلك من المعاني التي تناسلت من هذه الرواية التي لا ينطق بريقها.



بورخيس
كتابتان لا يثيران الملل
هما «دون كيشوت»
و«الف ليلة وليلة»
دوستوفسكي
في العالم كله لا يوجد
مؤلف أعرق وأقوى
من سرفانتس

كثيرة ما أشيع حول هذه الرواية، تهافتت القصص والسرديات حول هذا الكتاب الأعجوبة، حتى أحيط بهالة من الروايات لم يحظ بها أثر أدبي قبله ولا بعده.. وتلك حال النصوص الأدبية التي تبلغ حد الخرافة، وتنسخ حولها الحكايات التي تراوح بين الحقيقة والخيال.

يتفق النقاد والدارسون على أن الرواية برهنت على بداية الواقعية الأدبية كجزء من الجماليات النصية وبداية انطلاق النوع الأدبي للرواية الحديثة المسمى بالرواية متعددة الألمان، والتي ستحدث تأثيرا كبيرا في وقت لاحق على الأعمال الروائية الأوروبية، من خلال تناول ما تمت تسميته بالكتابة غير المشروطة والتي تمكن الفنان من إظهار كل ما هو ملحمي وغنائي وتراجيدي وكوميدي في محاكاة ساخرة حقيقية لجميع الأنواع الأدبية.

ويشير الناقد إبراهيم العريس إلى أن الرواية جزأيا قد وضعت الكاتب ميغيل دي سرفانتس على خارطة تاريخ الأدب العالمي، جنباً إلى جنب مع كل من دانتي المونتين، الذين تم اعتبارهم من منظري الأدب الغربي في رابعة هارولد بلوم «المجمع الغربي».

وفي عام 2002، وبناء على طلب هيئة الكتب النرويجية، فقد تم عمل قائمة بأفضل الأعمال الأدبية على مر العصور بتصويت مئة كاتب من الكتاب العملاقة من أربع وخمسين دولة مختلفة. وظهرت الأعمال مرتبة ترتيباً أبجدياً دون غلبة لعمل على آخر، ولكن باستثناء وحيد كان لصالح رواية «دون كيشوت» التي تصدرت القائمة باعتبارها أفضل عمل أدبي تمت كتابته في التاريخ في ذلك الوقت. وتعد الرواية واحدة من أكثر الكتب التي تم نشرها وترجمتها على مر التاريخ.

وزعم بعضهم أن سرفانتس كتب الرواية في السجن بعد تورطه في حادثة اختلاس، وقال آخرون إن الجزء الثاني من الرواية لا ينتمي إليه، وتوالت الأحجية حتى تندرت بها جماعات، وقالوا إن

العدل وتخليص المجتمع من الأشرار. ولأن التنازين التي تقذف بالنيران من السننها، وتريد سحق المستضعفين لا توجد إلا في رأسه المكتنز بالخيال، فإنه بدا يفترض أن طواحين الهواء هم أعداؤه الذين يتربصون ويكيدون له.. طواحين الهواء التي تسيرها الطبيعة الجبارة والعصية على القهر والهزيمة في إشارة إلى المحتوى الوجودي للقصّة.

كان لسدون كيشوت أن يختار له مرافقا مخلصا ومطوعا، يؤمن برسالته الإنسانية النبيلة، فاختر رجل بسيطاً، طبيبا وغريب الذكاء، اسمه سانشو، يتبعه على ظهر حماره في حله وترحاله، يساعده في كل شيء، فهو بمثابة ذراع اليمنى وخادمه الأمين. يدعم أفعاله وتهيؤاته بشتى الأمثال الشعبية التي يحفظها ببراعة لافتة.

يتخذ دون كيشوت في أحداث يراها واجبا عليه كفارس نبيل مثل زجره لفلح يجلد راعيا له بسبب خطأ ارتكبه، فيردع الفلاح ويهدده بتزليل أشد العقوبات عليه، لكن الأخير سرعان ما يعود إلى فعلته بعد أن يمضي دون كيشوت مزموا بانتصاره ومتباهيا بفعلته تلك أمام سانشو، الذي يبالح في تعجبه وتذكيره باللاحم الكبيرة.

جنون العظمة

حين رأى الناس جنون دون كيشوت، رغبوا في علاجه، وإعادته إلى جادة الصواب حسب رأيهم. رسموا لذلك مخططات لجعله يعود إلى سريره بعد أن انهكه الترحال ومقارعة طواحين الهواء، محاولين إقناعه أن كل ما أقدم عليه ليس إلا أوهاما وأن هذا العالم لن يتغير لجرد رغبتك في تغييره.

وفي نهاية القصة فإن دون كيشوت يعلم أنه كان يمارس ضربا من الغباء ولا فائدة مما يفعل، ولكن الأوان كان قد فات، فهل يظل على قناعاته الأولى أم يتخلى عنها معلنا الهزيمة. وفي النهاية يصاب بحنى شديدة يخلط فيها الهذيان مع الحكمة، الأسئلة مع الأجوبة، ويموت على إثرها وهو على سريره وليس على حصانه كما كان يتمنى.

روايتان فقط حصلتا على شهرة فاقت شهرة المؤلف: الأولى ضاع اسم مؤلفها واختلف الباحثون في أصلها؛ والثانية رغم أن اسم المؤلف معروف عبر العالم، على الأقل لأن المراكز الثقافية الإسبانية تحمل اسمه.. سرفانتس، إلا أن قلة تربط بين الاسم وبين الرواية. الرواية الأولى هي «الف ليلة وليلة»، والرواية الثانية هي «دون كيشوت». والروايتان لا تتيران الملل كما قال عنهما بورخيس.

حدث ذلك حين تم اختطافه من طرف قراصنة إبان النفوذ العثماني في شمال أفريقيا واستعانهم بقطاع الطرق البحرية لبيسط سيطرتهم على السواحل البحرية واستعادة بعضها من الإسبان.

طواحين الهواء

لا توجد معلومات دقيقة حول طفولة سرفانتس نظرا لكونها غير موثقة بشكل صحيح، باستثناء حقيقة أنه يتجول من مكان إلى مكان مع والديه بسبب بحث والده المستمر عن عمل. وكانت طفولته صعبة، حيث كافحت أسرته باستمرار مع الفقر. ولا معلومات واضحة حول إن كان قد درس في سنواته الأولى أم لا، إلا أن بعض الباحثين يقولون إنه درس في جامعة سلامانكا العمارة والآداب والفن في روما عندما كان شابا، إلا أن العلامة الفارقة في سيرة صاحب «دون كيشوت» أنه خدم لمدة خمس سنوات في صفوف البحرية الإسبانية حيث أصيب في يده اليسرى ولم يعد قادرا على تحريكها مما جعله عاجزا عن ممارسة المهنة والنشاطات ومكثها من التفرغ للقراءة وحدها.

أصعب، بل أخطر، ما في الأعمال الخالدة الكبيرة هو محاولة تبسيطها وتلخيصها بغرض عرضها كـ«خطا لا بد منه» في سياق متصل بجوهر فكرها وجوهرها الذي يفتح للتأويلات ويسمح لتعدد القراءات باعتبارها «حمالة أوجه» مثل كل أثر إبداعي تحفت به البشرية جيلا بعد جيل.

ليس انتقاصا من أي قدرات ذهنية على الفهم والاستيعاب، ولكن، إذا افترض المرء أنه مرغم لقص هذه «الخرافة» الشيقة والمتعة والمضحكة أحيانا، لإطلاقه، فإن التبسيط يقتضي القول إن دون كيشوت بطل الرواية هو الونسو كيكسانو، وهو صاحب مزرعة وعنده ما يكفيه من المال ليستطيع البقاء ويغنيه عن العمل، وهو بذلك يقضي معظم وقته في القراءة كاجمل رحلة تنسيه قسوة الواقع وجبروته. يميل هذا السيد إلى قراءة الكتب التي تحدث عن النبلاء الفرسان في العصور الوسطى وتمجد أخلاقياتهم وقيمهم المفعمة بكل معاني الرجولة والخصال الحميدة التي يفتقدها عصره.

أي نوع من الفرسان هم هؤلاء في ذهن صاحبنا؟ هم أولئك الذين يركبون الخيل، يذبجون التنازين، ولا ينجحون إلا لتقبيل أيادي السيدات في رقة ممزوجة بالرجولة والعذوبة.

أصبح الونسو كيكسانو يحلم أن يكون مثلهم.. الأمر سهل وبسيط في ذهنه، فما عليه إلا أن يرتدي درعا وخوذة، يتخذ حبيبة ملهمة يختار لها اسما مناسباً كي يهديها انتصاراته، أسوة بفرسان وشعراء العصور الوسطى، ثم يمشق سيفاً ويحمل رمحا كي يصير مثلهم. هذا مع بعض الإضافات والتحويلات التي لا بد منها كان يطلق على نفسه اسما لائقا اختار له دون كيشوت، اختط أن فرسا هزليا يشبه البغل وبدأ بالتجوال في القرى والأرياف بحثا عن المغامرات، وطلبا للمعارك التي تهدف لبسط



حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

تُعرف الإسبانية بأنها لغة سرفانتس، كما تعرف الألمانية بلغة غوته، الفرنسية بلغة موليير والإنجليزية بلغة شكسبير الذي رحل بعد يوم واحد من رحيل سرفانتس، أي يوم 23 أبريل 1616 لذلك اعتبر هذا التاريخ يوما دوليا للكتاب.

لعل الفارق الوحيد بين الرجلين هو أن اسم شكسبير أكثر شهرة وحفظا ورسوخا في ذاكرة القارئ من عناوين مسرحياته، أما إن قلت لأحدكم: هل تعرف ميغيل دي سرفانتس؟ فقد يهمهم أو يحك رأسه قليلا محاولا التذكر.. وإذا ما قلت له: صاحب رواية «دون كيشوت».. ساعته سيريدي عليك فوراً بقوله «نعم طبعاً»، حتى وإن لم يقرأ الكتاب أصلا.. يكفي أنه يمتلك الحد الأدنى من فكرة هذه الرواية التي أسست لفن كتابة الرواية، ويتلمس المقولة العامة التي بني عليها هذا الأثر الأدبي الأسر، واستحوذ على الباب كل من قرأها شرقا وغربا، فترجمت إلى مختلف بلدان العالم.

القصة من أولها

لا تزال الرواية محل اهتمامات ودراسات وأبحاث نقدية بعد أكثر من أربعة قرون على تأليفها. باختصار، إن سرفانتس، قد سرقه اسم بطله وجعله «نكرة» أصام هول سلطوته، وكذا تفعل الأعمال الخالدة باصحابها، فمن هو سرفانتس قبل أن يكون التسمية السائدة للمراكز الثقافية الإسبانية في العالم؛ بل وحتى أنه أعطى اسمه لبعض المطاعم البحرية في السواحل المتوسطية التي زارها حين كان مجندا في صفوف مشاة البحرية الإسبانية يقاتل الجيوش والقرصنة العثمانيين سنة 1570، كما في صقلية ونابلي وميناء حلق الوادي في ضاحية تونس الشمالية، حيث أثار هذا المعظم فضولي الشخصي للتذكر والكتابة عن هذه الشخصية الساحرة في كل شيء عاشته وكتبته وقالته.

لكل مؤلف من سيرة بطل روايته نصيب وهذا هو حال من تلمس سيرة ميغيل دي سرفانتس قبل روايته «دون كيشوت»

«لكل مؤلف من سيرة بطل روايته نصيب».. هذا هو حال من تلمس سيرة ميغيل دي سرفانتس (1547 - 1616) قبل روايته «دون كيشوت» التي كتبها سنة 1605، بعد أعمال سابقة لم يكتب لها النجاح، لكنها تنوع لسلسلة تجارب ومغامرات وإخفاقات واعتقالات كان أهمها تجربة سجنه المريرة في الجزائر حيث أمضى خمسة أعوام، ولم يطل سراحه إلا بعد دفع فدية جمعتها راهبات دير ترينيداديس الذي سيدفن لاحقا في قبوه.



دون كيشوت فارس نبيل يقرأ طواحين الهواء